

أوراق علمية(296)

نماذج من
إعمال الإمام أحمد للحِجاجِ العقليّ
في ردوده على المبتدعة

إعداد
عمّار محمد أعظم
باحث بمركز سلف للبحوث والدراسات

salaf center
جوال سلف : 00966565412942

المقدمة:

بين الفينة والأخرى تعلو أصوات من ينعق بأهمية العقل وضرورة إعماله، ولكن أُودع في العقل اللاواعي لكثير من الناس أن أهل العقل هم الفلاسفة اليونانيون في الزمن الغابر والمخترعون التجريبيون في الوقت الحاضر وحسب، غافلين أو متغافلين عن إعمال أرباب الإسلام وعلماء السلف للعقل، سواء في بنائهم للعلوم وأصوله كما هو الحال مع علم الحديث، أو في تصنيفهم المصنفات وترتيبها، فقد سبقوا إلى أصول التحقيق ومناهج البحث، أو في الرد والمناظرة كما أفحموا المبتدعة والزنادقة وغيرهم.

فيُتغافل عن أن الدين الإسلامي بدأت جذوره من العقل، وأن من ضروريَّات العقل التسليم لله ورسوله ودينه، وأن إعمال العقل في عقليَّات الإسلام من فروض الكفايات.

وفي هذه الورقة سنبرز نماذج من إعمال أحد أكابر علماء الإسلام للعقل، ألا وهو الإمام أحمد بن حنبل (ت: 241هـ) رحمه الله إمام أهل السنة والجماعة.

تمهيد:

يعدُّ الإمام أحمد بن حنبل أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة، ومن أوائل من واجه المبتدعة بالحجة والبرهان، كما واجههم بقول كلمة الحق عند السلطان، فقصة محنته بالقول بخلق القرآن مشهورة معروفة؛ حيث أذعن كثير من العلماء لرأي المبتدعة، وبقي الإمام أحمد شامخًا عزيزًا لا يرضى بأن يُرفع للبدعة رأس ولا أن يُسمعَ لها صوت. وبالفعل نصر الله السنة بالإمام أحمد رحمه الله، فعرف بإمام أهل السنة والجماعة.

وردود الإمام أحمد على المبتدعة من أجلّ الدلائل الدالة على حذقه وإعماله للعقل في محلّه المناسب.

نماذج من ردود الإمام أحمد العقلية:

1- من تلك الردود: **ردُّه على القائلين بوحدة الوجود** وأن الله موجود بذاته في كل مكان ونفوا عنه سبحانه وتعالى صفة العلو، قال الإمام أحمد رحمه الله: "وإذا أردت أن

تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أن الله في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، فقل: أليس الله كان ولا شيء؟ فقل له: حين خلق الشيء، خلقه في نفسه أو خارجًا من نفسه؟ فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال، لا بد له من واحد منها: إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين في نفسه. وإن قال: خلقهم خارجًا من نفسه ثم دخل فيهم؛ كان هذا كفرًا أيضًا حين زعم أنه دخل في كل مكان وحشٍّ قذر رديء. وإن قال: خلقهم خارجًا عن نفسه ثم لم يدخل فيهم؛ رجع عن قوله كله أجمع، وهو قول أهل السنة"[1].

فقد أحكم الإمام أحمد هنا الرد على الجهمية في نفيهم العلو ودعواهم وجود الله في كل مكان، وبيَّن أن قائل ذلك القول ملزَم بواحدة من ثلاث حين يسأل: أليس الله كان ولا شيء؟ فأين خلق الخلق حين خلقهم: في نفسه أو خارجًا عن نفسه؟

فالإجابة الأولى: خلقهم في نفسه وهو باطل ظاهر البطلان؛ فكيف يكون خالقًا وفي نفسه شيء مخلوق؟! وكيف يكون شرار المخلوقات داخلة في نفسه؟!

والإجابة الثانية: خلقهم خارج نفسه ثم دخل فيهم، فكيف يكون الله في الأقذار والشرور والنجاسات؟!

والإجابة الثالثة: خلقهم خارج نفسه ثم لم يدخل فيهم، فيكون قد رجع عن قوله وقال بقول أهل السنة: أنه ليس في كل مكان بذاته.

فالقول الثالث هو القول الحق والأولان ظاهران في بطلانهما.

ومثل هذه الطريقة في الحجاج في القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

(1) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص: 155 وما بعدها) - تحقيق دغش العجمي-.

خَالِدُونَ} [البقرة: 80-82].

فالمولى سبحانه وتعالى فنَّد في هذه الآيات افتراءً من افتراءات اليهود، وهو قولهم: إنهم إن دخلوا النار فلن تحرقهم إلا أيامًا معدودة.

فكان ردُّ القرآن السؤال عن مستندهم وبرهانهم لهذا القول، ولا بد له من أحد ثلاث إجابات:

فالإجابة الأولى: أنهم يعلمون الغيب، وهذا من الغيب الذي علموه واطلعوا عليه في اللوح المحفوظ، فهذا باطل عند اليهود أنفسهم ولا يقولون به ولا يدَّعون علم الغيب؛ ولذا لم يحاجِجهم القرآن فيه.

والإجابة الثانية: أن الله عزَّ وجل أخبرهم بذلك في كتابهم أو أعطاهم عهدًا بذلك، وهي إجابة لهم في ادعائها طريق؛ ولذا ذكره القرآن في أول النقاش: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا...}. ولكن يلزمهم حينئذ أن يبرزوا عهدهم وميثاقهم ويأتوا بالأدلة عليه، وهو ما لم ولن يستطيعوه، بل الشواهد قائمة على أنهم لم يفوا بما عاهدهم الله عليه من بيان الحق وإظهاره والتزامهم بأمر الله وشرعه؛ ولذا قال تعالى بعد عرض براهينهم: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

الإجابة الثالثة: أنهم قالوا ذلك القول إفكًا وكذبًا، وهو الاحتمال الأخير الذي يصدُق على حالهم، فلو لم يكن عندهم على صحة دعواهم برهان ودليل كان افتراء وكذبًا ودجلًا؛ ولذا اكتفى القرآن فيه بمجرد نفيه: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

فأمر الله رسوله أن يسألهم عن مستند ذلك: أأخذتم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقا، فالله لا ينقض ميثاقه، ولا يبدل وعده وعقده، أم تقولون على الله الباطل جهلا وجراءة

عليه؟[1].

2- ومن النصوص الدالة على حذق الإمام أحمد واتقاد ذهنه رحمه الله: **مناقشته لمن قال بأن الله في كل مكان ومحاجته لهم بوجوب المماسة على قولهم**؛ حيث قال: "فلما ظهرت الحجة على الجهمي بما ادعى على الله أنه مع خلقه قال: هو في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباين منه. فقلنا: إذا كان غير مباين أليس هو مماسًّا؟ قال: لا. قلنا: فكيف يكون في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباين؟! فلم يحسن الجواب"[2].

فمنِ ادعى وحدة الوجود وزعم أن الله في كل مكان، فلا مفرَّ له من إجابتين إذا سئل: هل الله في كل مكان مماسّ للخلق أو مباين له؟ فإن قال بأنه مماسٌّ للخلق، فيلزم أنه مماس للنجاسات والقاذورات والشرور! تعالى الله. وإن قال بأنه مباين للخلق، فيكون قد رجع عن دعواه بأنه في كل مكان.

أو يناقض نفسه ويجمع بين النقيضين، وهو ما لا يقبله عقل، فيقول بأنه غير مماس للخلق ولا مباين لهم!

3- ومن أجوبة الإمام أحمد التي تبرز لنا حذقه وفطنته رحمه الله: **رده ومناقشته لمنكري صفة العلم لله تعالى**؛ حيث قال: "إذا أردت أن تعلم الجهمي لا يقر بعلم الله فقل له: الله يقول: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ} [البقرة: 255]، وقال: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء: 166]، وقال: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ} [هود: 14]، وقال: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} [فصلت: 47].

فيقال له: تقرّ بعلم الله هذا الذي أوقفك عليه بالأعلام والدلالات أم لا؟... فإن قال: ليس له علم؛ كفر. وإن قال: لله علم محدَث؛ كفر حين زعم أن الله قد كان في وقت من

(1) ينظر: جامع البيان (2/ 279).
(2) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 159 وما بعدها).

الأوقات لا يعلم حتى أحدث له علمًا فعلم. فإن قال: لله علم وليس مخلوقًا ولا محدَثًا؛ رجع عن قوله كله، وقال بقول أهل السنة"(1).

فيُسأل المنكر لعلم الله سبحانه وتعالى عمَّا ما ورد من علم الله تعالى بتفاصيل الأشياء وأحوالها كقوله تعالى: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} [فصلت: 47]: هل يثبت علم الله سبحانه وتعالى بتلك الجزئيات وغيرها؟ ولا بد له بواحدة من ثلاثة أجوبة:

الإجابة الأولى: أن ينكر علم الله سبحانه وتعالى بتلك الجزئيات؛ وذلك تكذيب صريح بالقرآن وكفر وردٌّ لما أخبر الله سبحانه وتعالى به في كتابه.

الإجابة الثانية: أن يقر بما في القرآن ويقول بقوله، ولكن يزعم أن علم الله سبحانه بتلك الجزئيات حدثت بعد جهل؛ فيصف المولى الخبير العليم بالجهل، وما أبعد ذلك عن الله سبحانه وتعالى.

الإجابة الثالثة: أن يقر بما في القرآن من علم الله تعالى بالجزئيات، أنه يعلمها قبل وجودها وبعد وجودها؛ فالله يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو بكل شيء عليم، وهذا هو القول الحق وهو قول أهل السنة والجماعة.

وهنا يتجلى لنا حذق الإمام أحمد حيث فطن لمثل هذا السؤال المحكم، والإلزام لأهل الباطل، بحيث يفترض عليهم الالتزام بلوازم الباطل أو العودة إلى طريق الحق والصواب.

4- ومن النصوص التي تجلي لنا حذقه وبراعته رحمه الله تعالى: **ضربه للأمثال لتقريب الفهم**، فقد ورد في آيات أن الله سبحانه وتعالى مع الإنسان في كل حال وفي كل مكان بعلمه، فهو يعلم كل شيء في السماوات وفي الأرض، وهو بكل شيء عليم، وورد في آيات أخر أنه في العلو سبحانه وتعالى، فمن الأول قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا

(1) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 157).

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7]، ومن الثاني قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255]، وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: 16، 17]، فكيف يعلم الله ما في كل مكان ثم هو في العلو؟! وكيف يحيط المولى جل وعلا علمًا بكلِّ ذرةٍ في الكون ويكون مع كل أحد، ثم هو في ذات الوقت في العلو خارج الكون وليس داخله؟!

وتظهر لنا براعة الإمام أحمد رحمه الله بحله لهذا الإشكال حيث قال: "لو أن رجلًا كان في يديه قدح من قوارير صافٍ، وفيه شراب صافٍ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله -وله المثل الأعلى- قد أحاط بجميع خلقه، من غير أن يكون في شيء من خلقه"[1].

فضرب مثلًا واضحًا يبيِّن للإنسان أن ذلك ممكن للمخلوق الضعيف، أفلا يكون ذلك ممكنًا للخالق القوي؟! فالإنسان يمكنه أن يكون خارج كوب الماء ثم هو يعلم كل ما يدور في الماء، فإن كان هذا ممكنا للإنسان المخلوق فالخالق سبحانه وتعالى أقدر على ذلك.

فجمع بين الآيات الدالة على إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بكل المخلوقات وبين الآيات الدالة على علوه سبحانه وتعالى وكونه فوق السماء.

5- ومن الأمثال التي ضربها في هذه المسألة قوله رحمه الله: "قد أحاط بجميع ما خلق، وقد علم كيف هو وما هو من غير أن يكون في جوف شيء مما خلق، وهذا أيضًا قياس عقلي من قياس الأولى، قرر به إمكان العلم بدون المخالطة، فذكر أن العبد إذا صنع

(1) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 149).

مصنوعًا كدار بناها فإنه يعلم مقدارها وعدد بيوتها مع كونه ليس هو فيها؛ لكونه هو بناها، فالله الذي خلق كل شيء أليس هو أحق بأن يعلم مخلوقاته ومقاديرها وصفاتها وإن لم يكن فيها محايثًا لها؟!... لأنه هو الخالق كما قال سبحانه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14]"[1].

فبيَّن أنه يمكننا التصديق بكل تلك الآيات؛ الآيات الدالة على إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بكل شيء، والآيات الدالة على علوه سبحانه وتعالى، وأن مثل هذا موجود وممكن للمخلوق والخالق أولى به، فالإنسان قد يبني دارًا ثم يخرج منها ويعلم جميع ما فيها مع أنه ليس داخلًا فيها، والله سبحانه وتعالى خالق الكون ويعلم كل ما فيه وهو فوق خلقه مستو على عرشه سبحانه.

6- ومن النصوص الدالة على حذقه رحمه الله في **إثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى والرد على من أنكر ذلك** قوله: "ووجدنا كل شيء أسفل منه مذموما بقول الله جل ثناؤه: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: 145]، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} [فصلت: 29]"[2].

فبيَّن الإمام أحمد رحمه الله أن السُّفل ليس صفة كمال بل صفة نقص، والله سبحانه تعالى منزه عن كل نقص وعيب، بل إن الله سبحانه وتعالى أخبر أن السُّفل صفة أخسِّ المخلوقات وأحقرهم عنده، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}، والسُّفل مذموم عند كلِّ أحد، ويتنزَّه عنه كل عاقل، بل ذم السُّفل مستقرٌّ في الفطر والعقول حتى إن الكافر يتمنَّى يوم القيامة أن لو رأى من أضلَّه عن الصِّراط المستقيم ليجعله في السُّفل كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ}، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للإنسان

(1) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (5/ 108).
(2) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 147).

المخلوق فالله سبحانه وتعالى الخالق الجليل أولى بالتنزّه عنه جلَّ شأنه.

فهو منزَّه عن السُّفل وعن أن يكون شيء منه في السُّفل، تعالى وتقدَّس عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، بل هو العلي العظيم، وهو الكبير المتعال.

7- ومن النصوص الدالة على ألمعية ونباهة عقله رحمه الله: **ردُّه على القائلين بوحدة الوجود وأن الله في كل مكان** بقوله: "وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس [مكانه مكان، ومكان الشياطين مكانهم مكان] فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس في مكان واحد"[1]، فلو كان الله موجودًا في كل مكان فإن الله جلَّ وعلا أمرنا بالاستعاذة من الشيطان الرَّجيم، والابتعاد عن وساوسه ونزغاته، والترفُّع عن الأماكن التي يقطنها الخبُث والخبائث، وهو بالفعل ما يتنزَّه عنه الإنسان العاقل الطاهر، أن يجتمع هو والشيطان الرَّجيم والخبُث والخبائث في مكان واحد، ومن يقول بأن ذات الله تعالى في كل مكان يلزمه أن يقول بأن ذات المولى والشيطان يجتمعان في مكان واحد، مع أن الشياطين في أسفل السافلين، والله سبحانه وتعالى الأعلى ذاتًا وقهرًا وقدرًا سبحانه وتعالى.

وإذا كان الإنسان المخلوق يتنزَّه عن مجامعة الخبُث والخبائث، فلأن يُنزَّه الله عن ذلك أولى وأحرى؛ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس في مكان واحد؛ فإنه الخالق سبحانه الأكرم الأعلى الذي لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ[2].

8- ومن أعظم ما يظهر لنا حصافة الإمام أحمد ونبوغه رحمه الله: **استدلاله على أهل البدع بأدلتهم التي يستدلون بها،** والاحتجاج عليهم بذات النصوص التي يحتجون بها، ومن ذلك استدلاله على الجهمية بآية الشورى التي يستدلون بها على نفي الصفات، وهو قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، فالجهمية يدَّعون بأن معناها: "ليس كمثله شيء من الأشياء، وهو تحت الأرضين السبع، كما هو على العرش، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا ولا

(1) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 148).
(2) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 149).

في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة..."[1].

فاستدل عليهم الإمام أحمد بهذه الآية نفسها، ووضَّح دلالة هذه الآية نفسها على إثبات الصفات، وأن الشيء لا يمكن أن يكون بلا صفة وإلا كان لا شيء، فقال رحمه الله وهو يتحدث عن مناظرته لهم: "وقلنا: هو شيء. فقالوا: هو شيء لا كالأشياء.

فقلنا: إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء. فعند ذلك تبين للناس أنهم لا يؤمنون بشيء، ولكن يدفعون عن أنفسهم الشنعة بما يقرون من العلانية"[2].

ويظهر من النص السابق أنهم في استدلالهم على نفي الصفات يجعلون من تعظيم الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الاتصاف بالصفات حجة ودليلًا؛ ولذلك بيَّن الإمام أحمد أن دليلهم دليل عليهم وحجتهم حجة عليهم، فقولهم يؤدي إلى نسبة النقائص إلى الله سبحانه وتعالى والافتراء والكذب عليه عز وجل، يقول الإمام أحمد: "فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشد الناس تعظيمًا لله، ولا يشعر أنهم إنما يعود قولهم إلى فرية في الله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر"[3].

ثم استدل عليهم بأصل من أصول أدلتهم على إثبات الخالق وهو تدبير الخلق، فبيَّن أن دليلهم ذلك الذي يستدلون به على الخالق دليل عليهم في هذه المسألة، فقال رحمه الله: "فإذا قيل لهم: فمن تعبدون؟ قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا الخلق.

فقلنا: هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق هو مجهول لا يعرف بصفة؟ قالوا: نعم.

فقلنا: قد عرف المسلمون أنكم لا تؤمنون بشيء، إنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرونه"[4].

9- ومن أشهر المسائل المعروفة عن الإمام أحمد رحمه الله: **مسألة خلق القرآن، فبيّن**

---

(1) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 207).
(2) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 208 وما بعدها).
(3) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 212).
(4) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 208 وما بعدها).

أن القرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، ورد رحمه الله على إنكار الجهمية لصفة الكلام الثابتة لله سبحانه وتعالى، وكذلك القائلون بإثباته مع دعوى أن الكلام مخلوق بدليلهم الذي يستدلون به وهو دعوى تنزيه الله سبحانه وتعالى عن التشبيه.

فبيَّن الإمام أحمد أن تنزيه الله سبحانه عن التشبيه يقتضي إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى وأنه صفة من صفاته لا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ فإن نفي الكلام عنه تشبيه له بالأصنام والجمادات الصم البكم، وفي القول بأن كلامه مخلوق تشبيه له بكلام المخلوقين تعالى الله عن ذلك، قال الإمام أحمد رحمه الله: "قد أعظمتم على الله الفرية حين زعمتم أنه لا يتكلم، فشبهتموه بالأصنام التي تعبد من دون الله؛ لأن الأصنام لا تتكلم، ولا تتحرك، ولا تزول من مكان إلى مكان"[1].

هذا ردُّه على من نفى الكلام، وأما من ادعى أن كلامه مخلوق فكان الرد عليه: "قلنا: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فشبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق، ففي مذهبكم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خَلق لهم كلامًا، فجمعتم بين كفر وتشبيه، فتعالى الله عن هذه الصفة علوًّا كبيرًا"[2].

10- ومن تلك النصوص التي تظهر لنا براعة الإمام أحمد وحذقه رحمه الله: قوله في **نقض دعوى كون اسم الله في القرآن مخلوقًا**؛ حيث قال: "وزعمت الجهمية أن الله -جل ثناؤه- في القرآن إنما هو اسم مخلوق، فقلنا: قبل أن يخلق هذا الاسم ما كان اسمه؟ قالوا: لم يكن له اسم.

فقلنا: وكذلك قبل أن يخلق العلم أكان جاهلا لا يعلم حتى يخلق لنفسه علمًا، وكان لا نور له حتى يخلق لنفسه نورًا، وكان لا قدرة له حتى يخلق لنفسه قدرة؟!

(1) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 274).
(2) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 276).

فعَلِم الخبيث أن الله قد فضحه، وأبدى عورته حين زعم أن الله -جل ثناؤه- في القرآن إنما هو اسم مخلوق"[1].

فقد بيَّن الإمام أحمد أن منِ ادعى خلق اسم الله في القرآن لا مفرّ له من أمرين حين يُسأل عن اسم الله قبل خلق ذلك الاسم الذي زعم أنه مخلوق، فلا مفر له من إجابتين لا ثالث لهما:

الإجابة الأولى: كان له اسم قبل ذلك، وهو ما لا حجَّة له فيه بأي شكل من الأشكال.

الإجابة الثانية: لم يكن له اسم ثم صار له اسم بعد ذلك، تعالى الله عن ذلك، فكيف يكون موصوفًا بالنقص ليتصف بالكمال بعد ذلك؟! بل له الكمال سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد، ولا يمكن أن يحدث له كمال بعد أن كان ناقصًا، فالله سبحانه وتعالى منزه عن النقص.

الخاتمة:

علماء السلف رضوان الله عليهم -ومنهم الإمام أحمد بن حنبل- كانوا أسبق الناس إلى إعمال العقل وتوظيفه سواء في بنائهم للعلوم وأصولها كما هو الحال مع علم الحديث وأصول الفقه وغيره من العلوم، أو واصلوا ما بدأه من قبلهم في العلوم كالطب والفلك وغير ذلك، أو في تصنيفهم المصنفات وترتيبها ومناهجها، فقد سبقوا إلى أصول التحقيق ومناهج البحث، أو في الرد والمناظرة كما أفحموا المبتدعة والزنادقة وغيرهم.

وقد برز لنا من خلال هذه الورقة حذق الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ونجابته من خلال ردوده على المبتدعة والزنادقة الذين انتحلوا وصف العقل لأنفسهم، وخلعوا على أقوالهم صفة البرهانية؛ ليرموا أئمة السلف بالنصِّية وعدم الفهم والجمود.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

(1) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: 162 وما بعدها).